٣١ ساعى البحر ورسالة تحت الماء لعمر بن الخطاب

ارتبط اسمه بالقضاء على بدعة مكروهة.. كان المصريون يعملون بها ـ لاعتقاد معين ـ قبل الفتح الإسلامى، ودخول مصر تحت مظلة الإسلام. وهي قتل فتاة بكر غرقا في النيل حتي يفيض كما ارتبط بهذا الرجل الصالح أيضاً الكشف عن بطاقة مهمة. بعث بها ـ منذ أكثر من قرنين ـ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عامله فى مصر عمرو بن العاص ليلقيها فى النهر الخالد حتى يفيض بالخير والرخاء بعد القحط والجدب، عُرِفَ بين الناس بتقواه ونسبه، كما عُرف أيضاً بعلمه وفضله، ولذلك كان الناس يجتمعون حوله، إما تَبَرُّكاً به لتقواه ونسبه، أو استفادة منه لعلمه وفضله.

ذلك هو الإمام محمد بن الحسين بن حمزه بن عبد الله الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين بن على وفاطمة الزهراء رضى الله عنهم جميعاً، والذى اشتهر بين المصريين باسم «ساعى البحر أبى الشفقة» أو الشريف المكى، لصلته بآل بيت النبى ﷺ، ولمجيئه من مكة المكرمة إلى مصر.

ولقد اختلفت الروايات والكتابات فى شأن مجيئه إلى مصر وتاريخ وفاته بها. ففى شأن مجيئه كان الخلاف حول كيفية هذا المجىء، وفى تاريخه. قال البعض بأنه كان فى بداية ولاية أحمد بن طولون على مصر، غير أن هذه الكتابات تتفق على السبب الذى دعاه إلى هذا المجىء، وهو الفرار من عسف وظلم العباسيين، وتنكيلهم بكل مَنْ يمت بصلة للعلويين، فلم يجد غير مصر مستقراً له، كما فعل من قبل أجداده من آل البيت الذين جاءوا مع السيدة زينب بنت الإمام على رضى

الله عنهما فراراً من طغيان واستبداد بنى أمية، وتنكيلهم بأبناء وشيعة الإمام على كرم الله وجهه.

ونفس هذا الخلاف حدث أيضاً حول تاريخ وفاته، فهناك كتابات تقول إنه توفى فى سنة اثنتين وستين ومائتين هجرية والبعض الآخر يقول إنه توفى سنة ثلاثين وثلثمائة للهجرة والبعض الثالث يرى غير هذا وذاك، إلاَّ أن هذه الأطراف جميعها تتفق حول حقيقة واحدة، هى أنه جاء بالفعل إلى مصر، وعاش بها حتى كانت وفاته، وأنه دفن فى المكان الذى كان يعيش فيه بمصر القديمة، وفى شارع يُعرف باسمه الآن، وهو شارع ساعى البحر، وبه مسجد باسمه أيضاً فيه ضريح يضم رفاته الطاهر، ورفات شقيقه «جعفر» كما هو واضح من الكتابات الموجودة على لوحة الضريح.

أما عن السبب فى تسميته باسم «ساعى البحر أبى الشفقه» فلذلك قصة يسجلها السخاوى فى كتابه «تحفة الأحباب» وينقلها عنه بخذافيرها على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية»، وخلاصة هذه القصة أن محمد بن الحسين بن حمزة عُرف بساعى البحر أبى الشفقة لأنه لما تَوَقَّفَ نهرُ النيل عن الفيضان فى بعض السنين شق عليه وعلى أهل مصر ذلك، خشية الجدب والقحط الذى كثيراً ما تعرضت له مصر بسبب انعدام الفيضان، أو انخفاض منسوبه، والذى من أجله كتب المفريزى بعد ذلك مؤلفه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» فصار الإمام محمد بن الحسين بن حمزة يسعى إلى شاطىء النيل ويدعو الله أن يفرج الكرب ويكشف الغمة، ويغيث الأمة بأن يشفق عليها بفيضان النيل.

ومع ذلك أخذ هذا الرجل الصالح يسأل ويتقصى ويبحث عن الكتاب المشهور الذى أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع رسوله «حاطب بن أبى بلتعة» إلى عمرو بن العاص حتى استدل عليه، فأخذه ووضعه إلى جانبه وهو مشغول به، حتى إذا راح فى سُبات عميق رأى فيما يرى النائم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له: يا أبا الشفقة، قم وَالْق الكتاب فى النيل. حتى إذا استيقظ قام وألقى الكتاب فى ماء النيل، فكانت أخصب سنة على أهل مصر.. فلما مات دُفِنَ قريباً من البحر بمصر القديمة فى مواجهة حى الروضة الآن،

واشتهر عند أهل مصر بساعى البحر، أى الذى كان يسعى إلى البحر ويقف على شاطئه داعياً ربه أن يرحم عباده ويشفق عليهم بفيض من عنده فتمثل فى فيضان هذا البحر. ولذلك سُمى أيضا بأبى الشفقه.

يبقى موضوع هذا الكتاب الذى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أرسله من قبل إلى عامله بمصر، والذى ألقاه الإمام ساعى البحر أبو الشفقه فى النيل، فجلب له المياه التى فاضت بالخير والنماء... فيحدثنا المقريزى فى خططه، فيذكر أنه لما فتح عمرو بن العاص مصر توجه إليه أهلها، وذلك حين دخلوا شهور القيظ، وهى الشهور التى يفيض فيها النيل وقالوا له: «أيها الأمير، إن لنيلنا سُنَّة لايجرى إلاَّ بها». فقال لهم عمرو بن العاص: «وماذا كم؟» قالوا: «إنه إذا كان للثانى عشرة ليلة تخلو من شهر بؤونه عمدنا إلى جارية بِكْرٍ رشيد، فأَرْضَيْنَآ أبويها بالمال، ثم جعلنا علبها من الحلى والثياب أفضل ما تكون عليه عروس ليله عرسها، ثم ألقينا بها فى وسط النيل..» وهنا بادرهم عمرو بن العاص قائلا باندهاش كبير: «إن هذا لايكون فى الإسلام.. وإن الإسلام يهدم ما قبله» يقصد ما كان قبله من البدع المكروهة، وأى كُرْه بعد أن تقتل نفس بريئة لمجرد اعتقاد! إن هذا الصنيع يشبه إلى حد كبير وَأْدَ البنات فى الجاهلية، تلك التى حرمها الإسلام وهدَمَها وقضى عليها.

ولكن أهل مصر انتظروا على مضض، فأقاموا بؤونه وأبيب ومسرى والنيل أمامهم لايفيض، ولا يجرى بالماء قليلا ولا كثيراً، حتى هم البعض منهم بالرحيل عن مصر لجدبها، فلما رأى عمرو بن العاص ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فَرَدَّ عليه قائلا: «أصبت ياعمرو.. إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقه فَأَلْقِهَا فى داخل النيل إذا أتاك كتابى هذا».

وفتح عمرو بن العاص البطاقة فإذ مكتوب فيها: «من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى نيل مصر.. أما بعد.. فإن كُنْتَ تجرى من قِبَلِكَ فلا تجري. وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك».

وألقى عمرو بهذه البطاقة فى النيل تنفيذاً لأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه. قبل أن يتهيأ أهل مصر للرحيل والجلاء عنها والخروج منها، حيث لم يعد لهم فيها حياة ولا عمل بعد أن توقف النيل مصدر الحياة والعمل وفجأة أجرى الله النيل ففاض ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة. وقطع تلك السنة السوء عن مصر وأهلها.

هذه هى قصة الكتاب الذى جاءت معه البطاقة، والذى شغل الإمامَ ساعى البحر «أبا الشفقة» فى البحث عنه حتى وجده، فسَعى إلى البحر وألقاه فيه مرة ثانية ليفيض مرة ثانية، ويعم النماء والرخاء أرض مصر.

* * *